مصر

بين جوارف المؤثرات الاجتماعية

بقلم الدكتور منصور فهمى بك

مدير دار الكتب المصرية والمندوب بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

أراد الله أن تقع مصر بين أفريقيا وآسيا والبحر الأحمر و نحر الروم، وقد هيأها هذا الموقع الجغرافى لتكون ملتقى للحضارات المختلفة من شرقية وغربية ، كما هيأها لتكون مطرحا لأنظار الطامعين .

وكانت بلادنا منذ القدم مركزا رأسيا من مراكز المواصلات العالمية بين أقاصى الشرق وأقاصى الغرب ، وأقاصى الشمال وأقاصى الجنوب. وهذا المركز وذاك الموقع وما يقدرانه من شؤون سياسية واقتصادية يجعلان لمصر أثرا مذكورا فى شتى العناصر الاجتماعية الفعالة فى حياة الأمم ومجرى التاريخ العام .

وإذا صحت لهداية الأفراد تلك الحكمة التى نقشت على جبهة معبد من معابد اليونان وهى : "اعرف نفسك" فهى أكثر صحة لهداية الأمم حين تستجلى هذه الأمم مكانها بين شتى التيارات الاجتماعية والمؤثرات العالمية .

وفى استجلاء الحاصل الواقع خير معين لما يرتجى ، وخير موجه لما يراد أن يحصل و يكون.

ولقد تبدو لى صورة مصر الاجتماعية حيث أستعرضها من غابرها البعيد من أجمل صور التاريخ وأروعها . وحسبى أن أذكر ما كتبه المؤرخ "جوان" إذ قال :

" كانت مصر منبعث أشعة الحضارة الأولى ومهد العلوم والفنون ومهبط العبادات والطقوس الدينية ، ومركزا تلاقت فيه أشتات الأفكار المفيدة والخواطر النافعة ، وكانت لهذه الأسباب ولموقعها من الدنيا القديمة ، ميدانا تجلت للأنظار فيه أجل حوادث التاريخ وأشد عظاته وقعا فى النفوس. برزت مصر من وراء ستار العدم إلى مجالى الوجود واستقت بكيانها الخاص قبل عهد ابراهيم بزمان طويل فرأت عظمة " صور وقرطاجنة" تبزغ شمسها ثم تجنح إلى الغروب ، وكانت هى كنبراس يتشعع من أضواء العلوم والفنون فى حين كانت روما وأثينا واسبارطه لم ينفض عنها بعد غبار الخمول ولم تخرج من الظلمات إلى النور ، وكان

لها السبق والفوق فى كل شىء حتى ان أحدث آثارها وأقربها منا عهدا يرجع فى الوجود إلى ما قبل حروب تروادة ، ويحق لها أن تفتخر بأنها أول من رسم طريق الحضارة للجنس البشرى واختط له الخطط ، وأنها أول من بث نفوذه فى أرجاء الأرض وسحيق أطرافها حيث تخذت لنفسها فى كل منطقة المستعمرات للجالية من أبنائها " .

وهذه الصورة المجملة التى يعرضها المؤرخون تشف عما كانت توليه بلادنا لأمور الدين والغيب وعالم القدسيات من العناية .

وقد كتب شيشيرون الخطيب الرومانى الأشهر : " لا يندر عندنا أن تصاب الهيا كل ما فيها ، وأن تؤخذ التماثيل . أما عند المصريين فليس من المألوف سماعه أن يعامل قط أو تمساح أو بجعة معاملة يصيب أحدها بعض الألم من جرائها ، فهم يفضلون أن يلحق أشخاصهم أشد العذاب من أن يصل إلى أحد هذه الحيوانات أقل أذى " .

ومما تقدم ذكره يستطيع المؤرخ الاجتماعى تقرير أن التقدم فى شؤون الحياة كان مسايرا عند المصريين لأمور دينهم وتقاليدهم .

مصر النصرانية :

ولما امتدت النصرانية الى بلاد النيل فى عهد الرومان وفى غضون القرن الثانى للميلاد . وترعرعت فى أواخر الثالث وأوائل الرابع كان تشدد المصريين لدينهم الجديد بارزا وتعصبهم له قويا . فكان منهم من تحملوا شظف العيش وخشونته ولاذوا بالصحارى المجدبة الموحشة من أجل العقيدة التى تملكت نفوسهم وكان منهم الشهداء فى سبيل إيمانهم بدينهم . ويرجع السبق الى مصر النصرانية فى اشاعة التقاليد الكهنوتية فى العالم المسيحى .

مصر الاسلامية :

ولم تكن مصر الاسلامية بأقل تمسكا بالاسلام من مصر القديمة أو مصر النصرانية فاهدت لدينها بشتى أنواع الجهاد من فكرى وحربى ، واشترك فى ذلك حاكموها ومحكوموها وكان لمصر الاسلامية طابع خاص فى أساليب تدينها ، أثرت به فى سواها من الأمم الاسلامية الأخرى .

وإنى أعرض هذه النظرة العاجلة من تاريخ مصر الاجتماعى لألفت النظر الى أن بلادنا ظلت فى تاريخها الطويل دينية النزعة شديدة الحرص على تقاليدها ، ذات شخصية مؤثرة فى غيرها .

مصر الحديثة :

لم تدع مصر القديمة لأنتقل الى مصر القريبة منا . ويلوح لى أنه يسوء التأمل حال بلاد مصر القرن السابع عشر أن يراها متناسية لتقاليدها القديمة و المحافظة ، مفرطة فى السيرة على تراثها المعنوى ، واقعة من تيارات المدنية الغربية موقف المتأثر المقود . فطرائق التربية و التعليم تستمد كيانها من الغرب ، وأساليب النظم الادارية مستعارة من أساليب الحياة الغربية ، وفى العمارة ومكملاته عليه سمة الغربيين ، وفنوننا الرفيعة وما اليها أخذت مسالك تفهمها ، ورعية ذوى المقود و السلطان تتصاعف لتصير مصر غربية المظاهر والمخبر ، و أثرت نظم القضاء والعدالة بما سنه المشرعون الغربيون . ودحت العادات اللاتينية و الاجتماعية فى مجرى حياتنا مدرجة ، وأصبح ما كان مستنكرا فى ماضينا قريب من العادات شائع المذاق متقبلا ، وفى الجملة أصبح للتغرب مدى ألفه الناس واصطنعوه دعاة يهيمون به ولا يرتضون بعيده بديلا .

أسباب التغرب :

ويجدر بالباحث أن يسائل نفسه عن شتى الاسباب الاجتماعية والطبيعية التى دفعت مصر فى السير فى تيارات المدنية الغربية فى غير تريث ولا احتياط عكس ما كانت عليه فى الماضى اذ كانت تقاوم كل تيار اجتماعى خارجى وتقف لصده أو تكيفه بما يتفق و دينها وفنها وشخصيتها القومية .

ويبدو لى أن من أهم الأسباب فى ذلك أنه مر على مصر حين من الدهر تفشت فيها ألوان من الفوضى و الاضطراب ، وتبدلت هذه الفوضى التاريخية من نحو زمن الأيوبيين عدة تكرر عدد المماليك و لونى فصعفت روح النظام ، وتعددت المنازعات الداخلية ، وطغت الحروب الخارجية المادية على الحياة الفكرية ، واشتعلت الخصومات وشهوة الغلبة والانتصار على أمور أسس و لاستقرار لم يتمثل مؤرخين فى بعض عهود المماليك ، فانقطعت على الجملة صلة مصر بماضيها المستقر المجيد .

ومن أهم الأسباب كذلك أن بلاد الغرب كانت تعمل على قرار أنظمتها وكانت تشتمل فى الحياة العلمية و الفكرية وتتكشف الاكتشافات والمخترعات فهيأ ذلك بلاد الغرب لتقلب موقف القائد الموجه لغيره من الأمم الغربية منها والتى كان يعوزها التنظيم ووسائل البحوث و التقدم .

ومن أهم الأسباب كذلك أن مصر المعرقة فى سباتها ، الضعيفة المتحللة فى وهنها ، فقدت كل حصانة وعدة ، ووجدت مصادر القوة و السلامة والتقدم عند غيرها من أمم الغرب فتخلت عن

مضمولها لما عند غيرها من الأفضل ، والضعيف بطبيعته منجذب الى تقليد القوة . وتآزرت كل هذه الأسباب لكى تنقى مصر بنفسها من غير تحوط ولا تأثم بين أحضان المؤثرات الغربية جميعا .

وهال الأمر طائفة من الغيورين على قوميتهم . بل ذهب بهم هذا الهول الى نوع من اليأس فى اصلاح هذا الأمر الواقع ، ورد هذا التيار الدافع . لكنى أنكر على اليائسين يأسهم لأن المؤثرات الاجتماعية التى تقضى قضاءها فى الشعوب والأفراد قد تخضع هى الأخرى حين يوجهها المسيطرون برأيهم وشخصيتهم البارزة ، وذلك لأن أكثر الحياة الاجتماعية هى من خلق الانسان وعمله ومسعاه ، فهى إذن تخضع لقوة ذلك الانسان وعمله ومسعاه ان كان من القادة الصادقين المصلحين .

يقظة الأمة .

وكأنى بالأمم تستيقظ على صوت الهاتفين بتاريخها ، ودوى الطبول يدقها المنقبون عن فضائلها وقواها الكامنة فى أستار النفوس وحنايا الصدور .

وإخال أن مصر قد أخذت تتسلل من مرقدها الى هذه اليقظة المباركة وتزاح قليلا عن دائرة الحياة الغافلة الى دائرة الحياة الواعية العاقلة . فطاف بفكر أبنائها أشباح لمعنوياتها الماضية ، وطيوف تقاليدها المجيدة . وأصبح لنا فى هذه اليقظة أمل لبداية عصر للبعث والنهوض . وأقرب الأدلة على ذلك اننا حين شعرنا بلغتنا يفشو فيها الضعف وتتعرض للانهيار أنشأ عاملون من القادة المميزين مجمع للغة التى هى أخطر مشخصات القومية .

وكذلك حين أحس المستنيرون منا أن أخلاقنا فى تحلل اذ أخذنا نصطنع أسوأ العادات من حضارة الغربيين ثبتت فى نفوسهم فكرة مجلس للشؤون الاجتماعية حال بعد قليل الى وزارة لتلك الشؤون .

وهكذا أنشئت جماعات للاصلاح الاجتماعى ذات نزعات لشتى التوجيهات التى تتأكد بها شخصية الأمة ويستقيم بها سيرها فى سبيل كمالها المنشود . وفى كل أولئك برهان على يقظة الأمة وتنبهها لمعرفة نفسها وماضيها وقيم السبل التى تساق فيها سوقا ، فإذا صح زعمى فى حدوث هذه اليقظة فمن الحق أن نسائل أنفسنا عما يجب أن يصطفى من العرب وعما يجب أن يتجنب .

ما يصطفى وما يتجنب

المدنية الصناعية :

وعندى أن أول ما يجب اقتباسه من مدنية الغربيين هو الحضارة الصناعية . فلست ممن يجحدون قدرة الغرب على الصناعات واستخدامها ، ولست ممن يهونون قيمة الخدمات التى تؤديها الآلات ، بل إننا نحمد جهود من يروجون للمدنية الصناعية . انما ننكر على هؤلاء المروجين

نزوعهم للتجنى على المعنويات ، والثقافات التى تقوم عليها هذه المعنويات ، ننكر عليهم ذلك لاعتقادنا أن الحضارة الصناعية اذا هى أفلتت من قيود المعنويات من دين وفضائل فانها تنقلب الى سلاح خطر فيصبح الناس كأنهم بلا أفئدة ولا رحمة ولا وجدان ، وتصبح الآلات وأشياعها ومديروها سوط عذاب وخراب ، وفى حالة الغرب الحديث شاهد على ما نذهب اليه . فمرحبا بمدنية الغرب الصناعية اذن ماظلت لنا أخلاق نصان ودين يراعى ، ولا أهلا بها ما أفسدت فينا الوجدان وأضعفت فينا قداسة المعنويات .

المدنية الفنية :

وقد يستوقف نظر الباحث الاجتماعى من مدنية الغربيين مظهر المدنية الفنية ، التى يعتمد عليها فى تربية الأذواق وشحذها وترقية الحواس وتنبيهها . وإنى لا أذهب مذهب فيلسوفهم " روسو " الذى كتب رسالته المشهورة فى تسفيه الفنون وانتقاصها حين يرى أن المسارح والمراقص وألوان الملاهى وضروب الخيال انما تقوى الشهوات وماهو سيئ وضعيف فى ملكات الانسان وقواه . ولعل رأى "روسو" الذى لاق قبولا فى بعض مجامع العلم لم يعدم حتى اليوم أنصارا . فقد يجد لنصرته من لا يفتأ يصيح برد الناس عن المراقص والتصوير الخليع والأدب الهازل المستهتر وصنوف الزينة المتبجحة وفنون المستحدثات المنحطة فى الأثاث والرياش والترف الرخيص وما الى ذلك من حواشى المدنية الفنية العابثة .

و إنه ليغمرنى الأسى حين أشعر بأن هـذه الثقافة الفنية أصبحت تغمرنا فى غير رفق ولا أناة . فنحن الآن لانستحى مما كان باعثا حقا على الحياء ، وأصبح منا من يصرّفون نشاطهم المخصص للإنتاج السليم إلى هذه الحياة الفنية المثيرة لأحط الغرائز وأوضع الشهوات .

أما الفن الصحيح الذى يرفع النفس البشرية نحو الالهامات العليا و ينسمها ريح الأبدية والخلود فقد أصبح حظ الغرب منه فى هـذا العصر الحديث قليلا وأصبح حظنا فى محاكاة غيره من الفن الزائف هو الأوفر الملحوظ .

الفلسفات الزائفة :

ومن الأمور التى شاعت فينا على غير وجهها الصحيح من أثر جوارف التيارات الغربية والمحاكاة الضالة الغبية مايصح أن يطلق عليه اسم الفلسفات الزائفة . ومظهر هذا التفلسف أن بعض الآراء الاجتماعية التى صدرت عن المفكرين الغربيين حين أو صلتهم نظراتهم و بحوثهم العلمية اليها فرضوها واضعوها وفهموها فاهموها على وجهها الحق وقوموها الناقدون بقيمها . أقول إن هـذه الآراء هبطت إلى رءوس الجماهير من عامة الناس فأدركوها على غير حقيقتها

وقومت عندهم بغير قيمتها فأسيء استخدامها ، فأصبح الناس يلتمسون من عبارة الحرية والمساواة ما ييسر لديهم مذاهب التخبط الفكرى والاستهتار فى المسلك وتضييع الحرمات والقداسات كحرمة المعلم وحرمة الأبوة وحرمة الزوجية وحرمة السن وقداسة العقائد والتقاليد وحرمة التميز والمكانة وما شاكل ذلك مما أصبح عند المقلدين رخيصا .

قد يردد لسان أحد الناس عبارة الحق والحقوق ويصيح ويصخب ويدأب ويغضب فى طلب هذا الحق أو تلك الحقوق ، لكنه لا يتحرك ولا يتعب ولا يدأب فى سبيل الواجب وأداء ما عليه من واجبات ، وقد نجد بعض الناس يهلل ويكبر ويداور ويدبر لديموقراطية ومراميها ومع ذلك فاشد ما يشغل نفسه فى أعماقها وصميمها وجوانبها الانانية والصالح الخاص.

وقد نسمع بعضهم يرفع أنات الألم من ظلم الأغنياء للفقراء وبطش الأقوياء بالضعفاء ويبعثها صيحات مدوية حتى إذا ظفر بحظ الأغنياء وامتلا بصحة الأقوياء عادت صيحاته برما بالفقراء واحتقارا للضعفاء .

وقد نجد بعض الناس يذكر الحرية ويتغنى بها ويسبح لذكرها تسبيحا ، فإذا بحثت عن مصدر هذا الوحى فلا تجده إلا نزعة الاندفاع وراء شهواتها الجامحة ، والاقتداء بشيطانه الخفى الرجيم فى ميدان اللذائذ والموبقات .

أعرف سيدة أخذتها الشفقة على فتاة من صميم الريف فأحضرتها إلى القاهرة لتعين على تربيـة طفلها ، وعانت السيدة ما عانت فى سبيل الله لتطهيرها من أقذارها وتطييبها من أمراضها وأوبائها وإكرامها بنظيف الثياب وطيب الطعام ووثير الفراش وفسيح المجال لها للتروض مع الطفـل فى البساتين ودور الحيالة والمتنزهات . وأصبحت الفتاة تتصل بمثيلات لها فى المهنة وفى السن ، وما كادت تستمرئ المتاع بهـذه النعم حتى تطاولت الى التمتع بحريتها فيمن تحالط وقت ما تريد ، وما كادت السيدة تمانع فى مطلب الفتـاة حتى صاحت بها الفتاة صيحتها : " إنى حرة أفعل ما أريد " .

كلا يافتاة ! لا يجتر بالحرية من لا يحسن استخدامها . ولكل حرية حدود فى أوامر الله ومبادئ الخلق وأصول العرف المحترم .

•

اسبور :

وقد دخل الينا من جوارف التيارات والعادات الغربية تحت اسم : " الرياضة والتسلى " ما من شأنه أن يضعف فضائل الاحتشام والاتزان فى الرجل والمرأة على السواء . فقد تسمع بعضهم أو بعضهن يذكر أن الرقص رياضة ، وأن ارتياد الأندية الليلية مع غير ذوى الأرحام رياضة . وأن انفراد الفتاة بسيارتها تقودها وتنطلق بها إلى حيث تشاء رياضة . وأن التبذل

فى الأزياء رياضة . وإن لبس المجاسر على الشواطئ صيفا رياضة . إلى غير ذلك وكل أولئك على زعم إن صح أنه رياضة فهو ليس من الرياضة التى تكمل بها الفتوة . وان صح تسميته تسلية فهو ليس بالتسلى الذى يبرأ من الأذى .

التغرب

وخلاصة القول إننا أخذنا عن الغرب الكثير من شؤونه مما لم يسم بها الغرب ، وفرطنا فى الكثير من شؤوننا التى سما بها وتفوق ، وتهافتنا على مدنيته فى أوراقها الذابلة الساقطة ولم نرشف منه العصارات القوية التى دبت فى أصوله وفروعه وكونت أينع زهوره .

يسؤنى وقد يسوء الكثير من المواطنين والمنصفين قبول بلادنا أثر التيارات الاجتماعية المقوتة التى أشرت اليها . ومع ذلك وبرغم مقتنا لها ونقدنا إياها قد نرى أنفسنا متورطين فيها ومنساقين اليها .

فليت شعرى ما الذى يدفعنا فيها ، وما الذى يهون علينا السير فى مجراها المكروه ؟

ربما اجدنى ألتمس المعذرة لمن تورطوا فيها عن غفلة وجهل ، وربما أحاول فى تجور وتسامح التماس هذه المعذرة لمن استسلموا لهذه المؤثرات فتعودوا هذا الاستسلام فأضعفهم عن أدنى مجهود للمقاومة ، لكن لا أجد مفرا لمن أدركتهم اليقظة بعد أن توغلوا فى مختلف التيارات الاجتماعية ثم تبينوا مخاطرها على الأمة ومع ذلك يقبلونها فى غير تحرج ، ويريدون غواية الغير على قبولها . إن هؤلاء هم الغاوون الذين يجرون الى المهلكة الأبرياء . إن هؤلاء هم المفسدون الحمقى الذين يدعون الى الفساد من يجب أن يصانوا عنه من الأبناء ، إن هؤلاء يشدون جيلا آخر سوف يحملهم عند ربهم وأمام التاريخ والوطن الخالد تبعات شرهم ومكرهم ويسألهم أى ذنب اقترفنا وأى خطيئة اصطنعنا حتى مهدتم لنا سبيل الضلال وجهزتمونا لطريق المفاسد ؟

فمثل هؤلاء المضللون ينبغى أن نجبههم بالنصيحة الصادقة ، ونقول لهم فى غير تردد : اذا قدر عليكم الشر فاهلكوا فيه وحدكم ولا تظلموا أبناءكم ، فمن حق الأبناء علينا أن يصانوا من كل مكروه .

وإنى إذا صح لى أن أتهم الجهل والغفلة وضعف الخلق فى تسييرنا صوب التيارات الاجتماعية المسيئة ، فإن أشد ما أتهم هى المسئولية ، وأشد من أتهم فى ذلك هم المسئولون المسيطرون وقادة الرأى وذوو النفوذ .

انا نحب لبلادنا أن تصطنع الحضارة الصناعية وتغترف من بحرها الزاخر ماتشاء ، لكنا نكره لها أن تقبل العلم بريئا من القلب ، وتتلقى تطبيقاته الصناعية خالية من الضمير ، نكره لها

أن تنظر للعلم وتطبيقاته نظرة العالم الرياضى "بوانكارى" حين يذهب الى أن العلم لاخلق له . وحقا لقد ظهر العلم فى الغرب مقطوع الصلة بالضمير .

أما ونحن أمة دينية النزعة فى أطوارها ، شرقية اللون فى مشخصاتها الحميمة ، فاننا نسلم للعلم وتطبيقات العلم يوم يسير العلم وفنونه الينا فى حشده المهيب رافعا لواء الخلق والسلام والوجدان طاويا لواء الأنانية والتدمير والتخريب .

نحب لبلادنا أن تقدر للفن الرفيع قيمته ما دام يسير الينا هذا الفن الرفيع وحواشيه رافعا لواء السمو مسايرا لعظمة المبادئ الالهية التى نشأت فى الشرق وفى مصر ، ونكره لبلادنا أن تفتح ذراعيها لفن مدنس بألوان الحفلة يسير الينا خببا طارحا ثوب الحياء .

نحب لبلادنا أن تستبيح لنفسها أساليب الرياضة والتسلى على أن تمد هذه الرياضة وهذا التسلى عناصر القوة والمناعة والخشونة لا عناصر النعومة والترف وصرف الوقت دون التعمير والتثمير .

نحب لبلادنا أن يحتفظ أبناؤها بحرياتهم وبحقوقهم وبعزتهم النفسية على أن تظل هذه الحريات وهذه الحقوق وهذا الاعتزاز قصية عن الأهواء والتسلف ، مسيجة بحدود النظام والعرف الصالح وقدسية الآداب والحرمات .

نحب لنسائنا أن يصبن أقساطهن الوفرة من التهذيب والعلم والتثقيف ، على أننا نكره لهن كل ثقافة تضيع عليهن خيرها تمتاز به المرأة المصرية من التعفف والصون والطهر والحياء ، وتفوت عليهن تبعات مملكة العائلة وقداسة البيت ودواء الإيمان بشرائع الله .

نحب أن نأخذ عن الغرب لبه المصفى ليظهر فى حرارة صرائقنا الشرقية وحياتنا القومية . ونكره أن نعفر وجوهنا بتراب الملوث .

نريد بعد أن تبلبلت آراء بنى الانسان واختلفت أنظارهم فى تقدير الخير وانشر وضلوا عن سواء السبيل أن تكون كلمة الله هى العليا ، وأن نسلم للدين وللخلق ، وأن يكون صوت الدين هو الأسمى والأطهر وأن يكون وحى الخلق هو المسيطر الأكبر .

منصور فهمى